

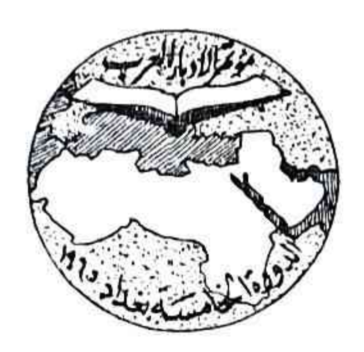
ادب الوحدة

بقلـم
فؤاد الشايب

بحث قدم الى مؤتمر الادباء العرب الخامس
١٥ ـ ٢١ شباط ١٩٦٥
بغـــداد

مطبعة العاني ـ بغداد





ادب الوحدة

بقلـم

فؤاد الشايب

بحث قدم الى مؤتمر الادباء العرب الخامس
١٥ - ٢١ شباط ١٩٦٥
بغـــداد

مطبعة العاني - بغداد

دعوة الى البحث[1]

يجب عليّ القول في مستهل الـكلام ، ان الموضوع المقترح للبحث ، أمام المؤتمر الخامس للادباء العرب ، تحت عنوان (الادب والوحـــدة) ، لا يمكن ان يستوفى بمحاضرة أو حديث ، ضـــمن تقاليد المحـاضرات والاحاديث المعهودة ، مهما بذل واضعو العنوان من مجهود توضيحي ، لتقسيم العنوان الى فروع ، يبقى الواحد منها ملازما للاخر ، لا ينفع معـه تقسيم وتفريع • وأولى بي ان اسارع الى الايضـــاح بانني عندما اخترت الموضوع ، عزمت على ان يكون سهمي فيه ، دعوة الى البحث ، لا بحثـا ، ولا محاولة لا معالجة • ولعل هذا ، يصلح مدخـــلا للتعرف الى جلال الموضوع وقدره •

وعندما مضيت في التخطيط لهذه المحاولة ادركت انني في جانب النقد ، أكثر ما أكون في جانب العرض • وان البحث لجدير بان يتجه نحـــو : (كيف يجب أن يكون أدب الوحدة) بدلا من ان يكون (كيف كان الادب في الوحدة) • وان يكن لابد للباحث من ان يجيب على السؤال الثاني ، ليتيسر له بالحق ، أن يعالج السؤال الاول ـ فلابد في الوقت نفسه ، أن نبادر الى طرح سؤال طالما فرضه الاجانب ، من زائرين وباحثين ، ورجال أدب ، واصحاب فضول : (ماذا لديـكم من أدب الوحـــدة ؟!) وماذا تنصحون لنا أن لنا أن نقرأ ، لنفهم حقيقة الوحــــدة اجتماعيا ، وثقافيا واقتصاديا ، وبشريا ••• ماذا اعددتم وماذا يجب ان تعدوا • الخ ••

وفي كل مرة ، كنا نجيب على الاسئلة بالصمت أو كانت أجوبتنا مثارا لاسئلة ، تضاف الى اسئلة •

---

(١) قدم لمؤتمر الادباء العرب ، في بغداد شباط ـ ١٩٦٥ •

وغالبا ما يعني الاوروبي بكلمة أدب ، في موضوع ما ، كل ما هو مطبوع من علم فيه واعلام ، فلا يقصر لفظ الادب على الشعر والنثر الفني ، مادة لعلمه وتعليمه • وعندما أشرت مرة على مستشرق اوروبي ، هو بالواقع شاب طالب استشراق ، بقراءة مجموعة من كتب في الشعر القومي ، أعرض عن اشارتي ، بقول الخصه مع الحوار فيه بما يلي :

١ – الا تزالون في مرحلة قراءة الشعر لفهم ادب الحدث ؟!

٢ – ان الشعر الوجداني القومي هو لكم وحدكم تطربون له وتقومون وتقعدون ، ولا تستطيعون ان تزعموا انه لنا مثلما هو لكم ، لبن وخمر ••

٣ – كان الشعر ديوانكم فيما سلف لكم من ايام • فو نشيدكم الحماسي ، وصحافتكم السياسية ، يوم لم يكن لكم اذاعة دائرة وصحافة سائرة • واليوم وقد تنوعت الاداب ، واغتنت بالعلوم ، واصبح الادب ، كما شاء ، وكان عليه ادباؤكم المعلمون الاوائل ، اخذا من كل شيء بطرف ، علما بالفقه واللغة ، وعلما بنجوم السماء ، وبلدان الارض ، واخبار الاولين واحوال البشر ، فلا أقل من ان يتخفف الشعر من طموحاته التقليدية لتستطيع فنون النثر ان تتولى باساليبها الواسعة وبحظوظها المتفاوتة من الافصاح والافهام والابلاغ ، ترجمة تمثلكم ، وتحليل واقعكم ، واعادة تدريس تاريخكم ، والتعريف برسالتكم •

قد يبدو ان هذا المدخل الى محاولة البحث في أدب الوحدة ، نقدا للشعر العربي ، وصدا عنه • والحق انني لا احط له من قدر ، فيما نقلته من نظر اجنبي الى عربي بل أميل بالعكس الى التأكيد ان الشعر في مرحلة من مراحل وعينا الثقافي ، والى ان يفتح الله علينا فنون الكلام ، هو منبرنا ، وندوتنا ، وافصح مبشر ومنذر ، ومذكر باحيائنا وامواتنا •••

فاذا جنحت الى قول فيه نقد وتعريض ، فليس لانني انتقص من قدر هذه الثروة القومية ، بل لانظر اليها بالعين التي ينظر بها مراقبونا ودارسو أيامنا ، من كوكب غير كوكبنا ، وعصر غير عصرنا •• من اجانب اصدقاء

أو خصوم الداء • ولخير لنا أن نرى أنفسنا في أعينهم ، قتيلا ، من ان نظل نرى أنفسنا في عين انفسنا ، جذعا عظيما • وانهم على حق اذ يتساءلون عما بين ايدينا من عتاد ثقافي يليق بطموحنا ، ويرافق خروجنا ويدل على انفتاح آفاقنا وزوال اوهامنا ومخافنا ، وهل نحن في المعركة ، نحمل سلاح المعركة؟!

تعيش الامة العربية ظرفا تاريخيا ، رميت فيه بالتحدي في أوانه أو قبل اوانه ، فقبلته ، وكان لابد ان تقبله ، تحت طائـلة الهزيمة والقبول بها • وخرجت الى الى ساحة التحدى لا لتقابل عدوا واحدا ، مسمى موصوفا ، بل حالة عداء غامرة محيطة ، ليس لها رسم واحد أو وجه واحد ، لانهـا مجموعة الاقنعة التي تحيط بها ، والاصوات الخفية التي تناديها والحراب المشروعة التي تزرع سياج طريقها ، والاوهام التى تتراقص في الظـلال ، والسراب الذى يخادع في الاضواء ، وليس الاستعمار نفسه في هذه الاجواء التي تقابل الخارجين اليها ، سوى الخضراء في طين السموم ، أو العقبان التي تحوم فوق روائح الدماء •

في معركة التحدى التي تخوضها أمتنا ، مع حالة العداء الغامرة التي وصفنا ، ليس عليها ان تحارب أعداءها الاقوياء فحســـب ، ممن يمثلون العنصر الاجنبي السافر ، فيما هي مقبلة عليه من هول التجربة والمعركـة ، بل عليها في الوقت نفسه ان تتعلم ممن تحاربهم كيف يحاربون ، فتقبل عليهم وهي تناجزهم ، وتقبل سلاحهم بينما هي تحطمه في أيديهم • وان يـكن هذا التناقض العجيب ، عبئا قاصما ، لا تطيقه ظهور الجبناء ، فهو قدر الذين يستجيبون للتحدى ويخرجون الى لقائــه • انه ناموس تاريخي أن تتفاعل الحضارات وتتلاقح، سلما وحربا • ويأخذ مستجد من مستقر ، بالحسنى أو بالقسر • وليس التلاقح دائما فعل تلاق ومحبة ، اكثر ما هو فعل كسب وقسر • وسواء أكانت المعركة بالمطاولة أو بالمناجزة بين مستقر ومستجد باصطلاح ابن خلدون ــ فلابد من ان يستعمل المستجد سلاح خصمه ، وابقى السلاح وافعله ليس الحديد والقوة ، بل سلاح الثقافة ، قبل كـل سلاح من اجل هذا ــ يؤكد المؤرخ توينبي ــ نجحت روسيا بدءا من بطرس

الكبير في خوض معركة التحدى مع اوروبة مستعملة حديدها وثقافتها ، بينما رسبت الدولة العثمانية على هامش المعركة ، برغم انها استعملت حديد الخصم ، ولبست بزته العسكرية ، دون أن تبلغ من ثقافته شأوا بعيدا أو قريبا •

ولنحذر من الوقوع في التوهم بان استعمال السلاح الثقافي في معركة التحدي ، يؤخذ من ترسانة الغير ، انما يعني التماثل الثقافي لزاما بين الآخذ والمأخوذ عنه كتماثل الاصل والنسخة بل ان المستجد غالبا ما يميل الى توكيد ذاته بتخطي ثقافة خصمه ، ثم بتمثلها في حياته الذاتية ، قوة دافعة ، تتخذ لها مجرى جديدا ، يكاد يقطع الصلة بينابيعه •

وليس الا ان نلقي نظرة متأملة على المجتمع الروسي لنرى كيف تقبل الحضارة الصناعية ، والمثالية الاوروبية معا ، وكيف خرج منهما بثقافة ترسل التحدى ، بدلا من ان تستقبله • ونظرة مقابلة على المجتمع الياباني أيضا ، لنعلم كيف تمثل الحضارة الصناعية ، واتخذها سلاحا ، بينما استطاع ان يوازن بين تقاليده وعصريته موازنة بارعة الحركة والنشاط والاستمرار •

ان تجارب الشعوب أمامنا حافلة بالدروس التي يجب الا تخفي علينا، والا نجهلها أو نتجاهلها ، تحت اى ظن من الظنون او زعم من المزاعم • وان من شأن تفتحنا على الحركة الكونية التي أغلق علينا دونها ، خلال حقب طويلة من جاهلية عثمانية جهلاء ، ان يؤدى بنا حتما الى طرح سؤال اولي بين شتى ما يعرض لنا من اسئلة • على اى اسس تتكون الثقافة العربية في تماسها وصراعها مع الحضارة السائدة • وما هي مقاييس ما يجب ان نأخذ ان نطرح ؟! والسؤال كما نعلم ، مطروح مفروض ، ولكن الاجوبة عليه ، كما نعلم ايضا ، أجوبة اعتباطية مرتجلة ، تتأرجح بين العصبية للسلفية من طرف والتحررية المستهترة بالقيم الموروثة من طرف آخر • وان يكن ليس في نيتي او طموحي أن اجيب على السؤال الكبير ، فلا اقل من يطرح السؤال ويعاد طرحه • اذ كثيرا ما انفرج الجواب ، عبر اسلوب طرح السؤال !!

بل بوسع الامة العربية ، أن تفيد حتى من تجارب الشعوب الصغيرة المتخلفة عنها كالشعوب الاسيوية والافريقية ، التي شبت على الطوق منذ عهد قريب ، وظفرت باستقلالاتها الوطنية على مستويات متفاوتة من الجدارات والكفاءات ، لان هذه الشعوب على ضحالة مياهها الثقافية قد استطاعت خلال عشر سنوات أو أقل ان ترسي قواعد تحررها الثقافي ، بله السياسي ، على اسس نظرية وعملية من صفاء الفكر وحسن التدبير . ولقد قيل ان نجاح هذه المجتمعات الفتية ، في التعرف الى طريقها مبكرة ، يعود الى الوعي الثقافي الذى تتميز به قيادات نضالية ، نشأت مع الشعب وولدة في حضنه ، بالاضافة الى أن الحركة النضالية بالذات ، عبر أدوار المجالدة والالتحام مع الاجنبي اجزت تيارات اجتماعية ثقافية في حياة المجتمع ، بما يعده فعلا لمستوى المعركة ، وضروراتها ، وهذا هو رأى الدكتور فانون ، في ثورة الجزائر . كذلك يعزى نجاح بعض هذه المجتمعات الناشئة ، في اكتساب ثورتها طابعا ايجابيا ، انها مجتمعات غير ذات جذور عميقة في الارض ، وغير ذات اعباء من التراث العريق ، تنوء بحملها ، لان اصحاب الجذور لا يمشون الا باقتلاع الخطى اقتلاعا ، واصحاب الاعباء من الامجاد ، كثيرا ما تبهظهم امجادهم ، وتتعثر خطاهم وهم اكثر اهل السرعة ، حاجة الى السرعة .

انا اذ تضع الوحدة العربية ، وهي الهدف القريب من اهداف الامة في حركة التحدى ، على ما وصفنا ، فلكي نقدرها بجميع ابعادها في كونا معركة وثقافة . اى انها رفض وقبول ، ودفع وجذب في آن واحد . ان قبولها شروط المعركة يفرضها الخصم القوى ، لا يعني هزيمة لها ، بل يعني انها قد وعت حجم المعركة ، فتعد لها ما استطاعت . ومثلما ان المعركة حشد آلي وبشرى ، وحصار هندسي ، ورصد نفسي ، كذلك فهي تعبئة اقتصادية ، وتنظيم اجتماعي وسياسي . وما من شيء قديم اتقنه الانسان بالممارسة العملية ، وغذاه بتقنيات التقدم ، كفن المعركة . وليس الا ان نعلم بان غزو النجوم في افلاكها غدا مجرد مناورة لتجربة طاقات الغزو في مجالات الارض ، حتى ندرك اى مدى بلغه فن المعركة بعلومه

الالية وانفسية والاجتماعية • والمعارك في التاريخ مثلما وطنت الخــراب ونقلت الاوبئة ، وطنت الخبرات والتجارب ، ونقلب العلوم والفنون •

ان فرض شروط المعركة من أعلى الى ادنى ، لايعني اتقان فنـــون التعارك فحسب ، بل التوضع في مستوى المعركة ومعناها ، وعصرها ، وهذا هو الاهم فيها كمعنى ثقافي • فالكاتب الفرنسي من أصل افريقي ـ الدكتور فانون ـ يرى في ثورة الجزائـر غنما ثقافيا كبيرا لاهل الجزائـر ، من بعض مظاهره ان المرأة المحافظة ، خرجت الى المعركة ، وكان لزاما عليها ان أن تطرح حجابها تحت الظرف والحركة ، ففعلت ومارست عملهـــا النضالى ، وشعرت بقيمة ممارستها ، كما شعر الرجل المناضل بجانبها • وايقن الاثنان من بعد ان المشركة ليست من فروض المعركة فحسب ، بـل من فروض العصر وثقافته الاساسية ايضا •

يبقى ان المجتمعات المحاربة ، تقبل شروط المعارك ، بردود فعـــل مختلفة متفاوتة • فاذا قبلتها ، فانا لابد مدركة سلفا انها مغايرة لتقـــاليد القوم ، وتربيتهم ولنوع من راحة نفسية يألفونها • واذا رفضتها ، وهي تؤلف بمجموعها ثقافة المستوى والضرورة ، كان ذلك امعانا من القوم في جاهلية ليس يبروها مبرر • انما الجاهلية كما رجمناها ، نحن العرب ، غرور وعناد ، الى جهل واسراف ، ليس يجملها تفاخر ولا غلو ، ولا بيان فني جميل في مثل هذا القول الفروسي الفحولي الرنان ، للشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم :

اذا بلغ الفطـــام لنـــا صبي ... تخر له الجبابر ساجـدينا •••

بل يقرعها ويصغر من شأنها قول بكري في التغالبة :

ألهى بني تغلب عن جل امرهم ... قصيدة قالها عمرو بن كلثـــوم
يفاخرون بها مذ كان أولهـــم ... يا للرجال لشعر غير مســؤوم

نعود الى تلازم المعركة والثقافة ، في حركة الامة العربية نحو الوحدة ، لنذكر ان الثقافة ، مثلما هى عمل بناء ، يرص لبنة فوق لبنة ، وراء النصر السياسي ، ويحفظه من التبعثر والضياع من جهة ، ثم ليؤمن له ســـلامة حركته واتصاله ، كما يقال باللغة الحضارية ، من جهة اخرى _ كذلك فان الثقافة بمعنى الخطاب ، والتعبير ، هي البلاغة المكتسبة من فهم احـوال الزمان والمـكان ، لتقوم بدورها المزدوج : الفني والاجتماعي •

بهذا الجانب من معنى الثقافة ، لا نخرج عن دستورنا العربي العريق في فهم البلاغة ، كما قرره لنا معلمونا الاوائـل ، وفي مقدمتهم الجاحظ • اذ لم يحددوا البلاغة على انها لفظ ومعنى فحسب ، بل هي كما قالوا (انطباق اقدار الـكلام على اقدار المعاني ، واقدار ، على اقدار السامعين وحالاتهم)• وهو ما يعبر عنه عادة بجملة (لكل مقام مقال) أو (مطابقة الـكلام لمقتضى الحال) •والرشاقة ، واجتباء اللفظ والمعنى فحسب ، بل هو الى ذلك ، خطاب موجه الى نوعية المستمع ، وحالته النفسية ، وظرفه التاريخي • وما لم يأخذ التعبير الادبي بهذا الدستور لا يعدو كونه ارسالا في الهواء أو جعجعة تلتهمها اصداؤها •

* * *

مقارنة مؤجلة

رغبة في اختصار حجم البحث ، حذفت في هذا المكان ، دراسة مقارنة ، بين قصيدتين مشهورتين في الجاهلية ، لـكل من عمرو بن كلثوم (ألا هبي بصحنك واصبحينا) والحارث بن حلزة (آذنتنا ببينها أسماء) ، على ان قصيدة ابن كلثوم تمثل الجاهلية بكل تفاخرها وتكثرها ، وهياجها العصبي القبلي ، وعدوانيتها السلبية ، وقصيدة بن حلّزة ، تمثل العقل والحـكمة مع علم باحوال البشر ، والتاريخ ، والنفس الانسانية ، وحرص على القيم كالحـق والعدل والامانة والوفاء ، ضد الجهل والغرور ، والظلم والغدر والنـكث بالعهود • ومعلوم ان القصيدتين القيتا أمام ملك المناذرة عمرو بن

هند في حادثة احتكام قبيلتي عمر بن كلثوم ، وابن حلزة الى الملك ، فلما اطلع على القصيدتين اثارته الاولى ، واقنعته الثانية ، فحكم لبني بكر ، على بني تغلب • وتوصف قصيدة ابن حلزة الهادئة ، بانها أدب نموذجي في مطابقة الكلام لمقتضى الحال) اى قد تمثلت فيها ثقافة المعركة، في مستواها وضروراتها ، وبلاغه القول في معنى ان البلاغة ، ابلاغ المعنى الى الموجه اليه ، بقسط من الفصاحة المناسبة لمستواه •

(يقع القسم المحذوف من البحث ، في حوالى صفحتين من ورق الآلة الناسخة ـ المؤلف ـ) •

★ ★ ★

ستحاول ، فيما بعد ، ان تتحدث بايجاز عن نوع الثقافة التي يجب ان تلازم نضال الامة العربية ، في سبيلها الى الوحدة • ونطرح السؤال : هل وجدت تباشير هذه الثقافة في تاريخنا الحديث ، وهل لها في تاريخنا التليد جذور ؟! وهما سؤالان ، يؤلف الجواب عليهما بحثين كبيرين ، من بحوث ادب الوحدة ، اقترحهما على نفسي ، وعلى من يعني بمثل هذا الموضوع من الباحثين ودارسي التاريخ •

وقبل ذلك ، علينا ان نعود الى منطلق الحديث حيث نقلنا رغبة طالب الاستشراق ، في أن نصله بادب عقلي علمي ، يرافق نضال العرب ، لتوكيد حريتهم بوحدتهم ، على أساس اننا تحاورنا حول اعتبار الوحدة قوة ثورية ، لا تمنح الحرية ، جميع العرب ، فحسب ، بل توسع لهم منها بالقدر العزيز ، الذي يتيح لهم ، تفتيح جميع طاقاتهم وتحشيد جميع مواهبهم ، من اجل غاية تتخطى الوحدة والحرية ، الى ازدهار المجتمع ، وسعادة الانسان العربي فيه • ويعني ذلك ان الحرية والوحدة ، غير مقصورتين على جانب النضال السياسي ولا تقومان الا في الحدود المرحلية من الهدف الابعد، وهو الانسان العربي في مجتمعه الافضل • وبمثل هذا ترتبط ثقافتنا ونضالنا ارتباطا قوميا ، بالمجهود الانساني المشترك ، وبقيمه الخالدة •

قلنا ان الشاب الاوروبي ، طالب الاستشراق ، اعترض على ان تكون

دراسات في الشعر العربي ، مراجع له في تقصيه أدب الوحدة ، مشـــيرا الى ان عددا غير قليل من الاجانب طفق يدرس نوعية المجتمع العربي في طريقه الى لم شعثه واجزائـه ، واكتشاف شخصيته وتحليلها • واشـــار علي بكتاب تحت عنوان (العالم العربي) للمؤلف الامريكي (مورو برجر) ، فبادرت الى اقتنائـه كما ذكرنا معا كتاب المستشرق الفرنسي (جاك بيرك): (العرب بين الامس واليوم) ، على انه محاولة جريئة ؛ في دراسة الشخصية العربية • واتفقنا على أن مثل هذه الدراسات ، هي المراجع ، عندما تفتقد المراجع ، لاسيما اذا كتب المؤلفون العرب انفسهم تحت مثل هذه العناوين وعندما إستعرضنا بعض ما يعرف من الآثار الادبية ، التي قد تجدى فـي دراسة المجتمع العربي واحواله وأمانيه السياسية ، وجدنا ان بعض الباحثين الاجانب ، كالمستشرقين (بيرك) انما يفضلون القصة على اى نوع اخر ، في دراسة الفرد والمجتمع ، والنفس ، في الحياة العربية ، اذا لـــم تكن القصة ، عملا فنيا يقلد فيه كاتبه عملا فنيا غربيا ، تحت تأثير المطـــالعات العابرة • وقد استشهد بيرك في كتابه (العرب بين الامس واليوم بطوائف من القصة والرواية في الادب العربي الحديث : مســـترشدا بها كتيارات اجتماعية ، وثقافية ، ونزعات رجعية أو تقدمية • وفي هـــذا ما يدل على صبر المستشرق ، ودقته ، ومشقة عمله ، موضوع يعتبر الخوض فيه مغامرة وكشفا ، في منزلقات خطرة •

وقد لا يصيرنا ، هنا ، ان نستطرد الى ذكر فصيلة من نوع المشكلات التي يطرحها الاستاذ جاك بيرك ، في تحليل الطاقة الثقافية العربية ، اذ يبدى تخوفه من ان تكون اللغة العربية ، التي ادت دورها بالفعل كأداة حفاظ على الشخصية العربية ، وتحد للاجنبي الدخيل ، ـ من ان تكون لغة جمود ، وعناد ، وحرون ووقوف بوجه التقدم ، وسير التاريخ ، بل ان المستشرق يحمل اللغة الضخمة تبعات الكثير من تخلف العرب ، في مرافق الحيـــاة السياسية والاجتماعية ، بله الادبية(*) •

(*) عرض الى جانب من هذا الموضوع ، الدكتور عبدالسلام العجيلي في مقاله ، في مجلة المعرفة العدد ـ ٣٦ ـ •

كذلك يبدو لي من حوارى مع طالب الاستشراق ، أن الباحثين الاجانب الذين يستشدون بنماذج من الشعر العربي المعاصر ، عندما لايجدون سواه مرجعا للتنقير والتقصي ، يقعون على مادة اقرب الى تضليلهم ، منها الى ارشادهم ، في تفهم نفسية المجتمع العربي .

وقد تذكرت بالفعل انني في اعداد هذه المعالجة ، نقلت بعض ابيات من الشعر للشاعر المهجرى الياس فرحات – سترد بعد قليل – يتغزل بها بالصحراء ، ويدعو اليها . بينما هو ، كأديب مهاجر ، يقع في الطرف المناقض من حرفية شعره ، فهو مجدد في اسلوبه وابتكار معانيه وفي اهدافه القومية والاجتماعية . يبقي ان مبعث دعوته الى الجاهلية والصحراء في بيت من الشعر ، لا يعني سوى انه يتحدى ازياء الفرنجة والفينقة في موطنه الاصلي ، ويفضل على جديدها ، وترفها ، ومعسول حياتها ، شظف الصحراء ، وجهل الجاهلية ، تمسكا بعروبة أصله واهله . ولا يعني شرد بأى حال ، انه في حقيقته ، عدو التقدم ، وثقافة العصر ، يمثل نموذجا للعربي المضحي مستقبله وطءا تحت اقدام ماضيه .

فاذا أخذ الشعر بحرفيته حقا على مائدة التشريح ، مجردا من ظرفه التاريخي ، ومن شخصية قائلة ، وحالته الاجتماعية ، وهو ما قد يقع فيه المستشرقون يصبح الشعر حقا ، مضللا لا مرشدا .

اضيف تحفظا آخر ، مسألة التمثل بالشعر او القصة ، في العصر الحديث ، لدراسة الشخصية والمجتمع العربيين ، هو ان صاحب الدراسة ، لا يستطيع ان يتفرد ببعض النماذج الادبية ، للاتكاء عليها دون أن يحيط بالمشهد العام للانتاج الادبي ، في حقبة من الحقب التاريخية ، اذ قد يوحي المشهد الادبي العام ، بعناصر دراسة المجتمع والشخصية البشرية ، بينما اللقطات المنتزعة لذاتها ، لاتشير الا الى العناصر الدخيلة أو العارضة فالشخصية العربية الملحقة ، بالثقافة الغربية ، خارج المجتمع العربي بالذات ، لا تدرس مثلا في ابيات شعر للشاعر المهجرى الياس فرحات مجردة عن مجموع انتاجه اولا ، وعن مجموع الانتاج الادبي المهجرى ، ثانيا .

* * *

كل هذا لا يمنعنا من القاء نظرة على مشهد عام من الشعر القومي الحديث ، خلال نصف قرن مضي ، بصرف النظر عن اعتراض الاوروبي طالب الاستشراق ، الذى سبق ان لخصناه بأن الاجنبي ، لا يطرب لجرس الشعر ، ولا يتأثر بوجدانيته ، ويفضل عليه مرجعا عقليا دراسيا ، يسهل مهمة صاحب الفضول الذى يريد ان يطلع بأهون او بقعقل سبب لا ان يلقي نفسه في مغامرة استكشاف بدءا من نقطة الصفر •

يبقى الشعر ، على كل حال ، جزءا ضخما ، من ثروتنا القومية ، وقد احتوى مفاهيم الوحدة كلها خلال نصف قرن ، كتعبير ادبي قوى ، شبي المنبر ، مرهوب المقام نضالى السمات ، الى جانب التعابير الاخرى التى يمكن حصرها : بالبان السياسي ، والمقالة الصحافية ، وبكتابة التاريخ ، وببعض المحاولات في البحوث الاجتماعية ، الجانبية ، كبحث في القرية أو العشيرة ، وآخر في المرأة ، أو نظام الارث ، أو حق التملك ••• الخ • ولعل اجزل البحوث فائدة من هذا النوع من البحث الديني الاجتماعي ، الذى تناول الديد من الاغراض الاجتماعية ، كما رآها الدين ، بتطوير أو دون تطوير ، وبأخضاع لحكم العصر بدون ذلك • مثل هذه البحوث ، ليس له عناية بموضوع وحدة الامة ، بقدر ما له عناية بالدفاع عن وجهة نظر اجتماعية ، دفاعا ذهنيا بحتا • وذلكم هو جانب حساس من جوانب (ثقافة الوحدة) مقترح للبحث والباحثين •

كذلك فان كلا من البيان السياسي ، والمقالة الصحافية ، يتطلب بحثا خاصا فيه • لاسيما وان بعض البيانات السياسية ، والمقالات ، قد ارتفع الى سوية الامهات الفكرية التي يصح ان تكون صوى ومعالم توضحية ، في طريق الخط العربي المتصاعد • بينما اسف بعضها الاخر ، وهو القسم الاعظم ، الى دنية الحياة اليومية ، والمشاغل السياسية والشخصية ، مما حملته اطنان ورق الصحافة والبيانات ، فذهب مع الهباءات الصغيرة التي تعيش وتموت بين ريح وريح • ولعل جمع المقالة والبيان ، كعمل دراسي ، لايقل أهمية عن جمع الشعر القومي ، والاجتماعي ، في تيسير مهمة الباحث •

وسنلم بمشهد العام للتاريخ القومي ، والبحث الاجتماعي ، عندما نعالج الموضوع ، من حيث نوع الثقافة العقلانية التي يجب ان ترافق الحركة العربية في طريقها نحو الوحدة .

اما الشعر القومي فسنخصه الان ، بوقفة قصيرة لانه التعبير الادبي الارقى الذى عكس الفعل في الحركة العربية ، بقدر ما عكس ردود الفعل واكثر ، ولانه كان سجلا مقصودا او عفويا لكثير من الاحداث والمواقف المعادية لحركة التجمع العربي ، بل يمكن القول ان الشعر كان حتى نهاية النصف الاول من هذا القرن ، أى حتى توضحت للعرب ملامح الوحدة ، توضحا ذهنيا ، وأصبح التمييز ـ مثلا ـ بين كلمتي (شعب) و (أمة) ضروريا للخاصة من المتنورين ، قبل العامة(*) أقول كان الشعر او كاد ان يكون أقوى التعابير الفنية ، عن المد والجزر في الحركة العربية ، وبالاخص انه كان تعبيرا عاطفيا ، عن عمل سياسي عاطفي من جهة ، ومن جهة ثانية انه كان تخطيا لليومي ، والشخصي ، نحو الكلي والمطلق ، في بعض الجيد منه .

وبذا يمكننا التعرف على المشهد العام للشعر القومي الحديث ـ خلال نصف قرن مضى ـ بالملامح التالية :

وبهذا يمكننا التعرف على المشهد العام للشعر القومي الحديث ـ خلال نصف قرن مضى ـ بالملامح التالة :

أولا ـ انه مشى وراء الاحداث لا امامها ، وتلكأ احيانا في مواكبة طلائع العمل القومي العربي .

ثانيا ـ في بعض ظروفه الزمانية والمكانية ، استطاع ان يعبر عن

(*) ورد في خطاب مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر في حفل اقيم لوضع بروتوكول ـ ميثاق ـ الاسكندرية الممهد لقيام الجامعة العربية عام ١٩٤٤ ما يلي : (يطيب لي أن اشيد بما يربط بين الامم العربية في مختلف البقاع من صلات قوية) .

ومعلوم أن الاصطلاح الذي يتناسب مع العلم والواقع والفهم الذهني هو أن العرب امة واحدة لا مجموعة أمم .

ضمير الامة في مواقف لـــم يكن لهذا الضمير سلطة او قدرة على التعبير •
وهنا ارمي الى القول بانه كان أقرب الى صمير الامة ، منه الى رأيها العام • بل قد تحدى الرأى العام في بعض مواقفه ، عندما كانت تخترقه اختلاطـات مريبة ، تمنع اندفاعه القومي •

ثالثا ـ تميز الشعر القومي ، بانه لم يقصر انشاده على عناصر القومية ومقوماتها من وحدة الاصل ، واللغة والتاريخ ، والتراث ، فحسب ، بل قد تغنى بروح النضال العربي ضد القوى التي تتهدد سلامة الـكيان ، أو الحدود ، من عثمانية الترك ، الى تمدينية الانتداب ، الى ويلسونية المبادىء الخادعة والالفاظ الضخمة • فاضاف الشعر القومي اضافة فعلية ، عامــل النضال ، الى عوامل الوحدة • وفي تحليل لـكثير من أحداث التاريـخ الانساني ، يؤكد الفيلسوف المعاصر (ارنولد توينبي) ان بعض المجتمعات وحدها عامل (السلامة القومية) المهددة ، ولم يكن لها أى عامل اخر من مقومات الوحدة •

وقد لجأت الى هذا التصنيف بحسب الملامح العامة ، للاشارة الـــى قيمة الشعر القومي ، مقابلا بالحدث • ثم ان هذا التقسيم يمكن ان يساعدنا في القـــاء نظرة عامة على المشهد ، دمن تفاصيله ، مما هو شأن الدراسات الخاصة فى الشعر(*) •

على ان هذا لا يعفينا من توضيح بعض المعالم في رقعة المشهد العـام • وهذا التوضيح من شأنه ان يقرن الادب بالحدث ، فنطلع بذلك على أهـم وقائـع الصراع والتحدى ، في حركة الوحدة •

١ ـ من حيث الشعر مشى وراء الاحداث العربية فغالبا ما ضربت الامثال بشوقي ، أمير شعراء العصر كشاعر طالمـــا تغنى بالشرق وبالعثمانية نفسها ، قبل ان يتصل أدبه بالجوار ويتأثـر بالاحداث الجارحة التي تمـر

(*) من الدراسات الواسعة في موضـوع الشعر العـربي ، كتـاب (الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث) للاستاذ عمر الدقاق ـ حلب ـ و (ادبنا وادباؤنا في المهاجر الامريكية) للشاعر الاستاذ جورج صيدح •

بساكني الديار ، وقبل ان يزور دمشق بصفة خاصة ، ليبكي جراحها ، ويستندي الامجاد العربية في تاريخها ، بشعر من ارق شعره ، واحفله بعاطفة الانسان والمواطن ، بل قد كان دأب معظم الشعراء وانبههم ذكرا ان يمجدوا الشرق حتى عندما يأتون على ذكر اوطان عربية ، نسجا على طراز شوقي قصيدته (الجلقية) المشهورة :

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام اخوان

ان هذا البيت الرائع الجامع ، على جلال قدره ، وقدرته ان يجمع عناصر الوحدة ، في اطارها الجغرافي والتاريخي كشرق ، وفي مفهومها كلغة، وكرحم ثم في واقعها كجرح وألم – لم يعرف كيف يفصح عن كل ذلك بكلمة (عدوبة) كأنه يخشى اللفظ ومعناه ، ويشيح عنه كلما رآه واصطدم به وجها لوجه • قيل ان امتلاءه باسلامه قد غلب عليه ، فلا يشعر بعصبية قومية ، وقيل ان ضعف الخيط العربي في نسب الشاعر قد اضعف شعوره بالعروبة • وقيل ان الرأى العام السائد في مصر آنئذ ، كان يؤلف وطنية مصرية ضد الاحتلال الانكليزى ابان ما كان العرب يحالفون الانكليز ضد بني عثمان • وقيل ان الفرعونية ، اصابت هوى من الشاعر وكان لها في مصر دعاة وانصار • وكل ذلك صحيح حقا ، مجتمعا لا منفردا •

على ان شعراء امجادا ، خارج مصر ، لم يسلموا من سحر الشرق ، حتى عندما راحوا ينادون بلاد العرب الى الجهاد في مثل دعوة رضا الشبيبي •

هاجدي يا أمم الشرق الألى قتلونا جاهديهم اجمعا •••

ولم يكن (الشرق) و (الامم) في كلام الشاعر سوى قومية العرب •••

حتى عندما انشئت (الجامعة العربية) عام ١٩٤٤ وترنم بها الشعراء ، بقي الشرق تعبيرا عن العرب ، في مثل قصيدة لعلي الجارم :

سنا الشرق من اى الفراديس تنبع ومن أي آفاق النبـوة تلمـع
تذوب حشاشات العواصـم حسـرة اذا دميت من كف بغـداد اصبـع
ولو بردى أنت لخطـب ميـاهه لسالت بوادي النيل للنيل أدمـع

وفي رأينا ان هذا الامتناع اللغوى ، لا يصدر عن هفوة لسانية عريضة بل هو ينبع آنئذ ، والى ما قبل عشرة أعوام او خمسة عشر عاما ، من أعماق الذهنية الثقافية وهي ذهنية ان تـكن تدرك ادراكا ماديا ان الاخوة يتضامنون والجيران يتشاكون ، ويتكفكفون ، فليست بقادرة ان تنتج من هـذه العلاقات الطبيعية تكوينا عاما أو تتصور لها مفهوما واضحا يتسامى ذهنيـا حتى يقين العقيدة • كما ان جهل التاريخ ـ كما قيل ـ ليس علة ذلـك الحذر من العروبة ، لأن شوقي وكبار مثقفي العصـر ، لا يجهلون تاريخ الاسلام وامة العرب بل هو قصور ذهني عام عن ادراك الـكليات تحت تأثير التزوير العقلي والعاطفي الذى كان ممتدا في حياة العرب ، من حكم الجاهلية الهمايونية الجهلاء •

ومثلما أن الحدث العربي في الراق والشام ، كان سباقا تاريخيا ، كان الشعر في الميدان الفـكرى وراء الحدث ، سباقا ايضا في هذين الموطنين من المواطن العربية • اذ بينما كان العرب هنا في ثورة ضد الدولة العلية ، وفي حلافة مع الحلفاء المحاربين كان العرب في مصـر يئنون تحت النير الانكليزى ، ويتأبون على حلافة الأحتلال تحت اى حجة من الحج • في هذه الحقبة التاريخية ، كان شعراء الشام والرعاق ، شعراء الدعوة القومية، لاسيما بعد ان غدر الحلفاء بحليفهم العربي ، ففقدوا الحرية والأمل المعقود على أدعياء الحرية ، في وقت واحد معا •

فمن شعراء العهدين : عهد الثورة العربية ، فعهد الاحتلال الفرنسي ،

خليل مردم ، ومحمد البزم ومن بعدهم شفيق جبري ، وبدوي الجبل ، وخيرالدين الزركلي • وقد تميزت مدرسة الشام الشعرية في النطاق القومي بفحولة اللفظ وبعروبة المضمون ، ومنبرية الالقاء ، فكانت المناسبات القومية في الشام وقفا على شعرائها ، كما كانت المنابر في العراق آنئذ ، والرصافي والكاظمي والشبيبي ، الذين اشتعلت ببواكير شعرهم لفظة الامة العربية ، فانارت مساحات من الشعور القومي ، برغم ضيق الرقعة التي كان ينتشر فيها الادب العراقي والشامي •

في نفس الفترة هذه طلعت في أندلس الاغتراب في الامريكيتين ، مدرسة شعراء المهاجر ، الذين انشدوا العروبة أجمل اشعارهم ، ومنحوها من قلوبهم وعقولهم أخلد روائع الادب القومي في القرن العشرين • لقد كانوا ، مثل زملائهم في مصر والعراق والشام وراء الحدث السياسي حقا ، ولكن شعرهم كان أكثر استجابة للحدث ، والتفافا حوله ، حتى ليغدو الشعر بالنسبة لجماهير العرب في المهاجر ، قيادة وتبشيرا وتهذيبا •

قيل ان السوريين واللبنانيين ، هاجروا وهاجرت معهم في مركب واحد ، احقادهم ، وعصبياتهم ، وخلافاتهم ، فما كادوا ان يستقروا ، حتى طلعت بينهم صحف ووريقات يتنازلون بها ويتناحرون • وعندما ارتفعت بينهم منابر الشعر القومي ، خرست لاغنية السوء واشرأبت اعناق القوم نحو المنابر وروادها الاوائل ، تاركين وراءهم سموم الصحافة واحقاد مستغليها ، ثم ما لبثت ان توارت كأن يدا سحرية مسحتها من اللوح الاسود • وتمت السيادة المطلقة لحناجر الدعوة القومية التي ما كانت اغانيها تتعالى في (ساناولو) ، حتى تتردد بعد اسابيع في دمشق ، تنشدها حناجر المنشدين • وكان شيئان مشهوران ايام الثورة السورية عام ١٩٢٥ : سيف سلطان الاطرش ــ وقصيدة الشاعر القروي في سيف سلطان •

فيالك غارة لو لم تدعها اعادينا لكذبنا المذيعا
ويالك اطرشنا لما دعينا لثأر كنت اسمعنا جميعا

وفي القصيدة ، خطاب مشهور ، للسيد المسيح :

ألا انزلت انجيلا جديدا يعلمنا أباء لا خنوعا
أجرنا من عذاب النير لا من عذاب النار ان تك مستطيعا

وأخيرا تمت المعجزة في أرض الوطن العربي ، بعد طول ارتقاب • وصمت وذهول ، وجاء الحدث العربي الكبير في ثورة مصر عام ١٩٥٢ لا ليدعو اليه الادب واعجاز البيان شعرا ونثرا ، بل ليخرج الى الحياة العربية خمسة عشرين مليونا من العرب ، قبعوا زمنا طويلا وراء السد الكبير ، الذى حجبهم عن أهلهم واخوتهم في مشرق الوطن العربي ومغربه • كان تهديم السد الكبير اول اعمال الثورة • ثم بدأ لقاء فكرى جديد ، على نطاق واسع وعمق بعيد ، يشهد التاريخ العربي مثلهما منذ الف عام •

ان الحديث عن اللقاء الفكرى العربي ، بعد ان تدفقت مصر على الخوض العربي ، وسعتها في التدفق اقطار المغرب العربي — ليس حديث كشف عن التاريخ وتنقيب في آثار الماضي ، انه حدث ، تدرس فيه بالحق ، صورة تكوين المستقبل العربي • وهو جزء من الموضوع المقترح على الباحثين •

وكل ما يمكن قوله في حديثنا السريع ، بينما نطوف حول بعض المعالم البارزة في المشهد العام ، ان الثورة العربية الجديدة ، لم تطىء (سنا الشرق) ولم تمس عزة الاسلام ، بل قد انقذت الفكرة العربية من سراب سنا الشرق ومن تمييع العروبة اى دعوة وحجة • واما الاسلام بالذات • فلا يخشى عليه ان يضعفه العرب ، بل اولى بالمسلمين ، اينما كانوا ان يخشوا على اسلامهم من ان يضعف العرب •

٢ — ان ما بلغه معنى القومية العربية ، اليوم من وضوح في اذهان الخاصة ، لم يبلغه الا بعسر وتباطوء ، وسط محاولات مصممة لتمييعه

وتضييعه • وقد حارب تجليه اقارب واباعد ، ووطنيون ، واجانب •

وسنلم فيما يلي ببعض ما لقيته الفكرة القومية في مآزقها ومخانقها ، ونحن نستعرض بعض الشعر القومي ، الذى وصفناه سانه عبر عن ضمير الامة ، في مواقف لم يكن لهذا الضمير من سلطة أو قوة على التعبير •

يمكن القول أن الشعر المهجرى كان سباقا الى التشهير بالحكم العثماني ، الذى هرب السوريون واللبنانيون من مظالمه ومجاعاته ، الى ديار الاغتراب • اذ بينما كان رعايا الدولة ، تحت النير ، وقد اشتدت مظالمها باشتداد مخاوفها ، وبانهيار قوتها في الحروب والثورات ، كان المهجريون يتمتعون بالحرية التي نفخوا في بوقها اول اناشيد الدعوة الى خلع النير والشعور بالوجود القومي • قال ابو ماضي ، وهو من كبار النافخين في البوق ، أيام الحكم العثماني :

ألم كم يحصرون الحكم فيهم   وكم ذا يبتغون بنا احتكاما
السنا نحن اكثرهم رجالا   اذا عدوا وارفعهم مقاما

واهاب بالقوم ان يتشبهوا بالثائرين من أصحاب القوميات المحشورة في الدولة العثمانية •

ابناؤكم لهفي على ابنائكم   يلهو بهم ابناء جنكيز خان
ثوروا عليهم واطلبو استقلكم   وتشبهوا بالصرب واليونان

حتى اذا شبت الثورة ، استشرى الظلم ، وعصف الهول في كل مكان، وظن السفاح انه يروع العرب باعدام احرارهم والتشهير بهم على أعواد المشانق ، تدفق معنى العروبة ، متمزقا عن الخلافة ، والولاء للدولة وعبر جميع شعراء العروبة في المواطن والمهاجر عن هذا الانفصال بالانفعالات شتى • قال الزهاوى ملخصا مأساة المشانق في دمشق :

لعمرك ليس الامر ذنبا اصابه   قصاص ـ ولكن يعرب ومغول

وخطب الشاعر القروى ، في حفلة اقيمت في صنبول البرازيل ، تكريما لشهداء الاعواد المطهرة ، فقال في قصيدة طويلة :

قد علقتكم يد الجاني ملطخة   فقدست بكم الاعواد والمسدا
اكرم بحبل غدا للعرب رابطة   وعقدة وحدت للعرب معتقدا

وظهرت العروبة في شعر حافظ ابراهيم ، اثر نهاية الحرب العظمى ، مقرونة بالشرق ، بحسب تقاليد الشعر ، ولكنها منفصلة عن القومية التركية: قال حافظ :

واها على دولة بالامس قد ملأت   جوانب الشرق رغدا من اياديها
والله ما غالها قدما وكاد لها   واجتث دوحتها الا مواليها
لو انها في صميم العرب قد بقيت   لما نعاها على الايام ناعيها

وبذلك عبر الشاعر العربي عن عصبية قومية في الموالي شعوبيين يعادون العروبة وكائدين لها وحاطبين في دوحتها •

أما اللغة العربية ، فقد قام لها الشعراء في لاميع ديارها ، بلا استثناء ، ينتصرون لها من دعاة التتريك والطورانية ، عندما اسفر العنصر التركي في الدولة عن عصبية حاقدة ، وتصدى للغة القوم ، اول ما تصدى لمجابهة العرب وقهرهم • ولعل ابرز سمات الشعر في أواخر العهد العثماني ، انه قد بدأ يتلمس طريقه الى القومية عن طريق الاحساس اللغوى • اذ ليس مسلما من يدنس لغة القرآ • وقد حشد الشاعر حشود العرب في جميع ديارهم ، على اعداء العربية فقال فؤاد الخطيب :

جاروا على لغة القرآن فانصدعت   له القلوب وضج البيت والحرم
فالقدس باكية ، والشام شاكية   وفي الحجاز يكاد الركن ينحطم

وفي هذا القول وسواه عزل للعثمانية عن العروبة في جميع ديارها •

ولعل طريق اللغة نحو التبشير القومي ، عند نفر غير قليل من شــعراء الديار ، كان ايسر للسلوك ، واقرب الى الذهن ، في البدء من مجرد الدعوة الى قومية عربية متميزة ، انشد لها شعراء المهاجر افانين من شعرهم ، واطلقوها حقيقة ذات جوهر خالص ، ثمين ، تكرم اللغة به ومن اجله • وليس بخاف ان وجود المهجريين خارج حدود السلطنة ، من جهة ، ثم تأثرهم الفكري بالدعوات القومية السائـدة عصرئـذ في اوروبة ، ثم ما انيح لهم من اجواء الحرية للتعبير عن الفــكر والوجدان ، ثم الحنين الذى الهب مشاعرهم واذكى قرائحهم ، الى جانب ما حل بهم من هوان في غربتهم وهم مشردون متضورون ، ينسبون الى الترك ــ توركو ــ ويســـبون بهم ، امعانا في اذلالهم ــ كل ذلك جعل النسب القومي أكثر من لغة ودين ، وان تــكن اللغة والدين ، من بعض ما تمثلوه فيه عزة وجلال • انه ، بالواقع ، صرخة وجودية يكرزها العقل والوجدان ، كلما تلمس المشرد انسانيته في أهاب وجوده القومي • او ليست القومية في أعمق معانيهـــا وانبلها ، تجمعا انسانيا ضد الضياع •

وعندما استقر الامر لمن سموا بالحلفاء في الديـــار التى جزأوها ، وتوزعوها فيما بينهم ، بلغ الشعر اوج احتدامه ، ضد الغاصبين الخـــادعين لولا ان طفق المستمرون والمخدوعون يزينون لفئات من الجماهير العربية ، دعوات جديدة الى عصبيات اقلمية حاولت ان تقلع الوعي القومي العربي من جذوره ، لتغرس في مواطنه قوميات سورية ، وفينيقية وفرعونية وآشورية ، كاد ان يستتب لها بعض الشأن ، لو لا ان اوهنها حمقها مرة ، وظهـــور اجنبي غير مقنع وراءها ، مرة اخرى ، فانحسرت عنها الجماهير ، وقام لها كتاب وشعراء يهزون جذوعها ويمرغون في التراب افواه دعاتها •

لقد اصيب الشعر العربي بالتشرد ، حقا ، عندما تسربت هـــــذه الاختلاطـات الموبوءة الى الجسد العربي في دور نقاهته ، اذ مثلما قام بعض الـكتاب في مصر والعراق والشام ، يستنكرون الدعوات المشبوهة ، كان كتاب آخرون يمضون في اناشيد وثنية خادعة ، يهللون بها لامجاد مزيفـة ،

لم تترك اى أثر في حياة الناطقين بالضاد ، اينما كانت مساكنهم • فليس للفينيقية سمات وتقاليد في حياة السوريين واللبنانيين ، كذلك ليس للفرعونية ، برغم هياكلها العجيبة وآثارها المادية فوق التراب اى اثر ، يشهد أو يعقل في حياة المصريين • على انه مما يجب ان يذكر ان ليس كل الهوى الشعرى والادبي نحو التاريخ الفينيقي ، كان تفينقا ، ولا الهوى نحو التاريخ الفرعوني ، تفرعنا • فقد ذكر لبنانيون مقيمون مغتربون أمجاد عابرى البحار ، ومخترعي الابجدية ، دون ان يقصدوا الى اذكاء عصبية ، او بعث وثنية • وانشد شوقي ، وحافظ ومطران ، كثيرا من امجاد الفراعنة ، ولكنهم لم يذهبوا قط ، الى تصديق دعوة جاهلية كتلك التي صدرت عام ١٩٣٢ عن بعض كتاب مجلة (السياسة الاسبوعية) تزعم ان مصر ورثت من غزاتها العرب اللغة والاسلام ، ولكنها حافظت على قوميتها ، وان للشعوب الشرقية ، ان تبعث آدابها القومية ، من عراقية وسورية ، ومصرية ، بمعزل عن لغة الضاد •

في الرد على هذه الدعوات التي تلافت منذ ثلاثين سنة ، فوق الارض العربية كأنها على ميعاد ــ وكانت كذلك ــ قامت قيامة النثر ، في مصر ، قبل الشعر ، وقام على رأس الحملة المضادة ، قلم جبار كقلم مصطفى صادق الرافعي ومن في مدرسته من شباب • وللمرة الثانية يعود النبض الى قلب العروبة ، مهتزا بنشوة الضاد ، محزونا لما يراد وبأهلها • وكان لصيحات حافظ والرصافي ، ومردم ، والبزم ، ذودا عن العربية ، اصداء بعيدة ، اثلجت قلوب الملايين من العرب الذين كانت تحز في نفوسهم ، دعوة الى وثنية ضالة تصدر عن البلد العربي الذى حفظ للصفي قدسيتها وثقافتها وحضارتها عندما كادت ان تبيد في جهالات الحكم التركي • وكانت قصيدة حافظ ، مشهورة في يومها :

ايطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادى بوادى في ربيع حياتي
واسمع للكتاب في مصر ضجة ... فاعلم ان الصائحين نعاتي

أما الفينيقية ووراءها كل أحقاد المهزومين في الحروب الصليبية ،

فقد قام لها في سورية ولبنان والمهاجر اللاتينية ، من لا يقصرون نثرهم وشعرهم على توهينها والازدراء بها ، بل يذهبون الى أبعد من ذلك ، في التعبير ببادرة جديدة من بوادر الاخلاص للقومية العربية ، هي وضعهم التراث الاسلامي في جبين العروبة موضعا كريما • لقد انقلب الشاعر المهجرى من خيال ناحل يتلمس وجوده في ديجور الشقاء ـ كما أسلفنا ـ الى عملاق يتحدى الاوهام المتطاولة • وانه الان ، فوق وجوده ليشعر بمجده وتفوقه • انه ليس المشرد الهارب من ظلم الخلافة العثمانية ولا الفرارى الهارب من عسكرها ووبائها ، انه العربي الذى استوى على قدميه ، واصبح وهو النازح الامي ، مبشرا ورسولا ، وصاحب بيان • لقد أصبح جزءا من الهيكل الذى طالما تعبد فيه ، واسلم قلبه الى ربه • وان لهذا المهاجر المناضل ، فضل الصدارة ، على زملائه الشعراء المستوطنين ، يحميهم وطنهم وقومهم ، وقانونهم ، ودولتهم ، ويحيط بهم مجتمعهم ، فيلازمهم ويلازمهم ••• ولكن من لهذا المشرد ، الهائم ، على الشاطىء المهجور ، يحمل من ماضيه ذكريات الاضطهاد ، ومن حاضره وقائع الاذى والهوان يتعلم العربية ، بين الجوع والعطش ، وانطفاء السراج ، حتى اذا تمتمت شفتاه بصلاة الدموع ، كان بعض صلواته ، شعرا يمجد به أهله وقومه وأمته ، وانه ليزداد وجدا وايمانا ، كلما اضعفوا مذهبه ، وأثاروا نعرته ونخسوا طائفيته :

انى على دين العروبة واقف قلبي ، على سبحاتها ولساني
انجيلي الحب القديب لاهلها والذود عن حرماتها فرقاني

ومثل هذا النشيد المتعالي ، الملقى من عل ، ليس مقصورا على لهاة الشاعر القروى ، سيد منابر الشعر القومي في المهاجر الامريكية انه واحد من عشرات ، ظلوا يزرعون الحنين في تراب الغربة ، شعرا ونثرا ، حتى اخضرت الصخور ، وازهرت الاشواك ، ومشى الدم الغزير في عروق السيوف : ابو ماضي ، فرحات ، صيدح الشرتوني ، الجر ، آل المعلوف ،

وآل قنصل وسواهم ، ممن لهم في الشعر فرائد غير مجموعة قيلت في مناسبات قومية ، ودينية ، كان يشترك فيها مسلمون ومسيحيون ، على اسواء .

وهذا الياس فرحات ، يذكر ابناء وطنه بأن الصليب لا تجوز معه تجارة ، وباسمه سياسة وامارة ، ويقول لهم :

نار المحارق في اسبانيا اكلت ... باسم الصليب نتاج العلم والعمل
لسنا نجادل عميا يطلبون على ... ضوء النهار دليلا والنهار جلي
ان العروبة في لبنان سائدة ... من اخمص البحر حتى مفرق الجبل
ان كان يسمع فيه همس فرنجة ... بيض الصوارم لاتخلو من الفلل

وكأن محبوب الشرتوني ، يغيظ المارقين ، يطلبون حماية فرنسا الدائمة ، او ينتسبون الى فينيقية الضالة ، عندما يقول لهم :

قالوا تحب العرب قلت احبهم ... يقضي الجوار علي والارحام
قالوا لقد بخلوا عليك اجبتهم ... اهلي وان ضنوا علي كرام
قالوا البداوة ، قلت أطر عنصر ... صفت القلوب هناك والاجسام
ومحمل بطل البرية كلها ... هو للأعارب اجمعين امام

حتى عندما انطلقت الحناجر تدعو للتجديد ، في أرض الوطن العربي ، فعلا وكلاما ، كان المجددون انفسهم في ديار الاغتراب ، يدعون الى الصحراء تعصبا لترات عروبتهم وتقاليد امتهم ، ضد الفينيقة والفرنجة ، لاخصومة لتجديد حقا : فعندما كان حافظ ابراهيم يقول :

تغيرت الدنيا وقد كان اهلها ... يرون متون العيس الين مضجع
ونحن كما غنى الاوائل لم نزل ... نغني بارماح وبيض وادرع

كان فرحاب ، يولي وجهه شطر الوطن المنكوب بدعاة تغربيه ، وبتر صلته بعروبته لغة ووطنا :

حي البداوة نوقهـا وخيامهـا والجاهليـة رمحهـا وحسامها
حيتك اشباح القـديم وسلمت فمن العدالة ان ترد سلامهـا •

وفي مكان آخر من قصيدة آخر :

فلينظر الناس هل من امة فعلت للمجد فعل رعاة الشاء والابـل

اما القروي ، الذى مثل بروحه وعقله ، روحا وعقلا عربيين ، وعاش عروبته كما غناها ، فانه يأخذ بيد الضال الحيران ، يفتش عن نسـب له في فينيقية قائلا :

أتريد اعظم من ابي بكر ومن عمر ، اذا انتسب الكرام ومن علي

فـكأن يأخذ طفلا أمامه ، ويفتح له الواقع الـكبير ، ويقرر بالسؤال جوابا لا مرد له ، ولا رد عليه •

قلت اني لا أقوم بدراسة أدبية ، في الشعر القومي ، ولن اتمكن في حديث قصير من الموضوع استشهادا واحاطة ، على نحو ما فعلت بزاوية من الشعر المجرى ، الذى احببت ، بالواقع ان اخصه بوقفة صغيرة ، أجمل فيها رأيي بأنهذا الشعر ، لو خلا حوله كثير من الشعر ، لـكفى وحده دليلا على وفاء الشاعر لنفسه ، وولاء العربي لعروبته • فهنا قد عبر الادب عن ضمير الامة ، في وسط لم تتوافر فيه قط أسباب التعبير ، او حتى أسباب التكوين البدائـي للشعورالقومي ، لاسيما اذا كان المغترب المهاجر ، قد حمل معه ذكريات الخروج ما حمل ، ولقي • بل قد عبر الادب فـي تفجيره مواهب أهله ، عن قوة الرفد الحضارى العربي عندما تتغذى بـه الطاقة الانسانية • لذلك انهارت الدعوات الغربية ، وغدت تحت اقـدام الجماهير التي سرعان ما تجمعت غريزتها حول هذا الهتاف القومي ، وتكون منه كثير من الـكفاية والغبطة •

ومما لاريب فيه ان اللغة العربية في البدء ، كانت طريق الادباء المهجريين الى التماس النجاة ، وجهاد الضياع • وقد بلغوا باللغة ، تاريخ الامة ،وبلغ بها التاريخ تراثها العظيم ، فانخرطوا في عمقه ، وتولت الطبيعة عندئـد عملها في اعادة تكوين الانساني العربي • فـلم تكن اللغة لديهم ، غاية يقفون عندها لان طموحهم في غربتهم ، بعد ان تزودوا خير زاد ثقافي قـد بلغ بهم القمة التي اشرق منها فجر كامل من الشعور القومي الغامر ، بعيدا عن التيارات التي كانت تعكر صفاء الشعور القومي ، في ارض الوطـن العربي نفسه ، وأبرزها التشاد الطائفي •

أقصد الى القول بان التكوين القومي الجامع الذى تم للمهجريين وادبهم ، مرده الى عاملين : الاول هو انغمارهم بالتراث العربي ، عن طريق اللغة العربية تمسكا بالنجاة ، وتمكنا من الوجود • والثاني ، هو حصول التجربة في جو توافر لـه الصفاة في البعد ، فسلم من تيارات البيئة الفاسدة ، وبهذا يكون جو الاغتراب عنصر صفاء في تبلور الشعور القومي ، لا عنصر تشويش وتعكير ، يضاف الى هذه العوامل ان الحضارة في المجتمع الامريكي الجنوبي لم يكن لها طابع مميز يدمغ الداخلين فيه ، كما هو الشأن في المجتمع الامريكي الشمالي ، حيث كاد ان يتلاشى الطابع العربي تحت تأثير عاملين : بعد العربي عن تماسه بتراثه ــ وقوة الطابع الحضارى في المجتمع الذى ارتمى في احضانه •

فاذا ما تقابل الطابع الحضارى الاجنبي مع التراث العربي ، كانـت الغلبة للتراث بقدر ما يحمل منه حامله في ذاته ، بصرف النظر عن مسـكنه ومقامه • ولعل أبا ماضي والريحاني ، وجبران ، ــ نماذج للتجربة واضحة فالاولان نموذجان للتأثر بالتراث تأثرا عميقا ، يشمل العـقل والقلب واللسان(*) • واما الثالث فهو نموذج للانسان الشرقي ، المتمرد على لغتـه وتقاليد قومه ، الا ما تبقي له من نزعات روحية ، اسبغ عليها اضواء ثقافية

(*) يروى عن الريحاني ، أنه اجهد نفسه كثيرا في تعلم اللغة العربية، بعد اتقانه اللغة الانكليزية •

غربية ، فغدت كقوس قزح تجربة جديدة من تجارب التلاقح بين الشرق والغرب •

★ ★ ★

٣ ـ لن اتحدث طويلا في الوجه الثالث من ملامح الادب القومي ، وهو الوجه النضالي بتبسيط وتفصيل ، اذ قد لخصت فيما اوردت من شواهد ملامح الادب النضالي • والمقصود بهذا الجانب من الشعر ، عدم اعتماده على مقومات الوحدة من نسب ولغة ، وتراث حافزا له وغذاء • فهو دعوة الى النضال ، والقتال ضد العدو المشترك ، وانذار بان الغنم واحد ، والغرم كذلك فاما الفناء للقوم أو البقاء لهم جميعا • وقد حاول العقاد في قصيدة (تعليمية) جمع عناصر الوحدة في خمسة ابيات من الشعر ختمها بدعوة النضال المشترك والمصير المشترك :

شكواكم شكواي او سلواكم   سلواي او اشغالكم اشـــغالي
ومطالب الغازين في بيدائكـــم   كمطـالبي ومآلكم كمآلي

بل بدأ هذا الشعر ، ينصرف عن التغني بامجاد الاسلام ، وذكريات الماضي ، ليتمكن العربي من مجابهة المستقبل والتفرغ له • وفي قصيدة مشهورة قال الرصافي :

تقدم أيها العـــربي شوطـــا   فان أمامك العيش الرغيـــدا
واسس في بنائك كل مجـــد   طريف واترك المجـــد التليدا
وخير الناس ذو حسب قديـــم   أقام لنفســه حسبا جديدا

وكان رضا الشبيبي ، اقسى عندما نزع نزوعـا عنيفا نحو التقـدم ومجاراة الامم :

يا أمـــة من جهلهـــا   تأبي مجـاراة الامـــم
ذلت حديثا أمـــة   ابـدا تفاخر بالقـــدم
وأحـال منهـا رمـــة   طـول التباهي بالرمم

ومعنى هذه النماذج الشعرية ، أن الدعوة النضالية ضـــد الاجنبي الدخيل ، غدت دعوة تقدمية في الوقت نفسه . ولعل ابرز ملامح الادب القومي النضالي ، في هذه المرحلة ، انه بدأ يقرن النضال القومي بحركة الجماهير ، تعزيزا له ، وتنظيما لها ، وطفقت كلمة (جمهور) تتخذ مادة معقولة محسوسة ، أكثر مما كانت اللغة تعطي سابقا كلمة (شعب) .

وكان طبيعيا ان ترافق دعوة الجماهير العربية الى تسلم زمام النضال ، حركة قلمية تدعو الى النظر في واقع هذه الجماهير ، واوضاعها المادية والروحية وتحديد علاقاتها الاجتماعية ، الجديدة . وكان الشعر الذى عقب كارثة فلسطين ، يحمل طعم المر والدم في كثير من دعواته النضالية لاضد الاعداء الغاصبين فحسب ، بل ضد من قادوا الشعب من حكامه وخدعوه وباعوا جهاده ، ومثل الشاعر عبدالكريم البكرمي – ابو سلمى – في معظم شعره مدرسة (الشعر الحر) . ولا يمكن حصر عدد شعراء هذه المدرسة ، اذ قد انتشرت بين شباب العرب في جميع ديارهم ، وعلى الاخص خلال العشرة الاولى بعد منتصف هذا القرن ، كآبة وحزنا وتمزقا وغضبا .

أما انشغال الاديب بمشاغل قومه سياسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، فقد أعرب عنه شعر مهجرى اخترت منه ، هذه الابيات الحاشدة الجامعة للشاعر صيدح :

ياولاة الامـور سمعا لشـكوانا	وسـعيا .. ان المهم المقـدم
أوثقوا عروة العـروبة فينـا	ذهب ريـح امـة تتقسم
وجهونا فنحن قوم حيـارى	بالزعامـات والطوائف نأتم
افهمونـا كـنه السياسـة إنـا	قد شقينا في حب ماليس نفهـم
عللونا بوحـدة الروح تـأتي	بعـدها وحدة التخوم فتسـلم
ارشدونا الى السبيل المـؤدي	لامـان القطيـع في غاب ضيغم
دربونا على انتزاع كفاف العيش	مـن قبضـة الثري المنعم
وانصروا على غـلاة اساؤوا	فهم طه وفهـم عيسى بن مريم
شـهد الله ما أردنـا وليـا	غير من حـرر البلاد ونظم

وانه لجلي من سياق هذا الشعر ، ان الفكر طفق يلازمه ، والعقل ينظمه ويبصره بواقع المجتمع ، وتبعات اولياء امره وانه لذو اغراض غدت ابعد من نخوة وحماسة ، وانتساب لانها تتناول كل ما يعني الامة ، والشعب، واولياء الامر ، من مشاغل الجاد الى مشاغل العمل والتنظيم ، فاذا لم يكن الولي محررا أو منظما ... فغيم ولايته ... ولمن ؟! ان الشعب لا يريده اسما اذا لم يكن فعلا .

أرجو ان أعذر اذا اقصرت في الاستشهاد بطوائف واسعة من شعر الشعراء ، اذا قدمت بعضا ، واخرت بعضا ، وسهيت عن بعض . فانني كما قلت لا اقوم بدراسة ، ولست ابتغي التقصي . انما ما رويت من نماذج شعرية ، كان محاولة لتوضيح الملامح في المشهد العام . وقد اصررت على تتبع الشعر المهجرى ، لانه بالواقع تعبير بليغ عن المقومات الثابتة والمتحركة معا في تيار القومية العربية ، واتجاهه في طريق الوحدة ـ اولا ـ ولانه قد اتيحت له الظروف الزمانية والمكانية ليتسامي عن الاختلاطات التي رافقت الحركات والمحاولات القومية في أرض الوطن العربي بالذات ـ ثانيا ـ

ومهما يكن من شأن الشعر في حياتنا القومية ، فيجب ان نؤكد ان عنايتنا به ، لم تكن قط دون قيمته وقدره ، وأحيانا بلغ من تقديرنا هذا الكلام الفني الرشيق ، ان نسينا واجبنا نحو أنواع شقيقة من التعابير الادبية الاخرى .

فكم باحث ، حصر جهده وعناءه في جمع الشعر ، ودراسته وتحليله، وقصر في جمع فنون النثر ، والافادة منها فيما يبتغيه من دراسة التاريخ او حياة المجتمع(*) .

وبالحق اننا لا نستطيع ان نفي البحث حقه ، امام الاجيال ، اذا اعتبرنا ديوان الشعر ، تاريخنا ، ومرجع ابحاثنا . ففي الموقف اللبناني ـ مثلا ـ ضد نزعات الفرنسة او الفينقة ، او القومية السورية المناهضة

(*) من الكتب المفيدة في جمع الشعر وتحليله ، كتاب للدكتور عبدالكريم الاشتر (الشعر المهجري) .

للعروبة ، آثار رائعة من النثر بأقلام الفئة الممتازة من الادباء والباحثين • اما المعركة ضد الفرعونية فقد اسفرت عن آثار قلمية اسلامية ، تعتبر ذروة في الابداع الفني ، والعلم التاريخي • فكيف يمكن ان ندرس تاريخ نشوء هذه الدعوات وموتها ، واسبابها ، فيما وصل الينا من قليل الشعر ، ولا ندرسها في الكثير من النثر الذى عالج المشكلة واحاط بها ، وسجل وقائعها للاجيال ، • ومن اجل هذا ، ذكرت في مدخل اللمحة العامة عن الشعر القومي ان فكرة الوحدة العربية انما تدرس في مظانها : في المقالة ، والبيان السياسي ، وكتابة التاريخ القومي ، والبحث الاجتماعي ، والشعر • واعتقد ان دراسة القومية العربية بحركتها الجديدة المعاصرة في هذه المظان الرئيسية، من شأنه ان يكشف لنا عن دقائق نموها وتطورها ، مقارنة ابدا بالظرف السياسي ، والبرهة التاريخية ، والمستوى الاجتماعي والاقتصادى • ومن شأن هذا البحث ايضا ، ان يساعدنا في كشف مستقبلها مثلما ساعدنا في كشف ماضيها ، لاسيما وان علوم التاريخ والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، والنفس ، والانسان ، اصبحت ذات قواعد ، لا نزعم انها نهائية او حسابية ، بل دقيقة بما يكفي لقياس الواقع ، وتحديد تخوم الممكن من غير الممكن ، والموهوم من المعقول ، بأقل تقدير • لاسيما اذا استرشد هذا العلم بتجاوب الشعوب •

أما ان يتجلى القصور عن العلم المعاصر ، بالسلبية العزيزة على قلوب بعض مثقفينا ، التي تتخذ شعارا لسلبيتها ، عنوان الدكتور الكسي كارل (الانسان ذلك المجهول) ، فلا اقل من ان نرد على هذه السلبية المخدرة للعقل العربي والمريحة في آن واحد ، بأن ندعو الى بلوغ ما بلغوه من شأو في المعرفة لنتعرف على حدود العلم والجهل • والجاهل لا يحق ان يقرر حدود العلم •

بهذا أعود الى الشعر ، كرة ثانية ، لاجمل ملامحه ، بنوعين ؛ لا أظنه يتعداهما ، على تنوع اغراضه وفنونه واساليبه • وهما أنه غناء ، وخطاب وكثيرا ما كان غناء وخطابا معا في مواقفه القومية •

ولا نكران ان الغناء والخطاب لاءما ذوقنا ، وشعورنا ، ومستوى تفكيرنا فيما مر بنا من أحداث ، حيث كنا بأشد الحاجة الى نوع من الحداء لنسلو ، ونوع من الغناء لنصفو ، ونوع من النشيد لنشتد ، ونوع من الخطاب بالصوت المدوى ، لنتحرك ، وننفعل ونرهف السمع ، ونجلو البصر • وان الشاعر والسياسي والخطيب ، والقائد ليعلمون أن التوقيع على نغم يهز الفكر ، أو القلب ، لا يبلغ مهما كان جميلا الا اذا خرج الى هدفه بالصوت العالي ، وبالسهم الحاد • حتى أن التطرف في أداء كل فكرة أو مذهب ، ليس سوى جنوح الى التأثير بالتعبير الصاعق لان صاحب التعبير يعلم سلفا انه ليس ببالغ هدفه في النفس الا ان يقرع بابها قرعا عنيفا ، مهما كان رد الفعل من بعد ، وحسب القارع انه اسمع ، وشق الى الغفلة واللاوعي ، والجمود المثير ، طريقا لصوته وعقله وقلبه •

اننا نعترف بهذا الواقع النفسي ، على انه نابع من واقع اجتماعي وثقافي ، يضاف اليه واقع الحدث الطارىء ، الذى كما قلنا واقع المعركة • والصراخ بالصوت العالي جزء من سلاح المعركة وتكوينها •

ومع اعترافنا بواقعنا النفسي الاجتماعي ، لامندوحة من التأكيد بأن التعبير بالغناء والخطاب ، ليس سلاح المعركة وحده ، او هو ليس سلاح الميدان ، بالاحرى • لان الميدان اوسع افقا ، وابعد اتصالا بالمواقع الكثيرة ، التي تغذى المعركة من قريب او من بعيد •

ومع تسليمنا بأرجحية المعركة في حياتنا القومية وبحالة الطوارىء التي تسود ظروفنا المعاشية والروحية ، يجب ان نستدرك بادراك ان المعركة ليست مجرد اصطدام عابر بغزوة ، بل هي امتداد نضالي مستمر عبر أجيال واجيال ، لان العدو الذى ندخل معه معركة المصير ، ليس مجرد عدو معروف موصوف ، بل هو الى جانب ذلك وقبل ذلك حالة عداء غامرة شاملة تحيط بالامة وتبتدىء منها وتتداح دوائرها حولها • والامة معها في حالة دائمة من قبول التحدى ، والاستعداد للصراع • وان من شأن حالة الصراع ان تفرض حركات رياضية ، يمارس بها الجسد المتصلب المتخشب ، تمارين

الـكر والفر ، والمضاء والالتواء ، والاستقامة والالتفاف • يعني كل ثقافة الفروسية الاصيلة التي هي تمارين روح وجسد ، وعقل وخلق •

وليس كاللغة العربية من يعي قيما مادية ومعنوية متماثلة ، لالفـاظ الترويض ، والتأديب ، والتثقيف ، والتهذيب • وليس كالسلف من يقرن الادب بالعلم والعلم بالعقل ، والعقل بالاخلاق •

لعل هذا المتكأ من الحديث ، يجيز لي ان أعود الى السؤال عـن ثقافة الوحدة وكيف يجب ان تكون •

لابد ان عرض المشكلة ، منذ البدء ، قد اوضح الغاية من طــرح السؤال ، ورمى بعض خيوط الجواب •

وسأطوف حول السؤال بعض الطواف عســـى ان يزيد الجواب وضوحا • مع الاشارة دائما ، انني لا ابحث ، بل اقدم للبحث •

اننا لا نجهل بان علوم التاريخ والاجتماع ، والاقتصاد ، والتدبير السياسي ، تدخل الى معالجة شؤون المجتمع من أبواب مختلفة ، كــل من باب اختصاصه وتخرج كلها أمام الهدف الواحد وهو ضبط واقع المجتمع وتخطيط السلوك الانساني ، وانماء القدرة البشرية على تغطية القدر الاوفر من المجهول ، وتمكين هذه القدرة من رصد المســتقبل ، كأنه بين يدى صانعه ، وتسليط ارادة الخير على العالم •

حتى ان العلوم الطبيعية نفسها التي تجعل المادة موضوع العلم ، لا تتمكن من التصرف بالنتائـج التي تبلغها ، وبالحقائق التي تعطيها ، فقد تزيح القنبلة جبلا من طريق المدينة ، وقد تزيح مدينة من طريق الوجود • لكن العلوم الاجتماعية التى تجعل الانسان موضوعها ، فان هدفها اعظم طموحـا وقدرا ، لانها ترمي الى التحـــكم بالطبع الانساني الذى تطوف حولـه • صحيح ان الانسان طبيعة ، وهو امنع معاقل الطبيعة ، على العلم المـادى والعلم الاجتماعي معا • والصحيح ايضا ان العلم المادى ، يحاول ان يغرس الفضيلة في دمه ، ونسيج مادته ، غرسا صنعيا ، يشبه صنع الآلات بينمـا يحاول العلم الاجتماعي ، ان يكشف لـه عن ارادة انسانية ، بها وحدهـا

يمارس فضيلته بطوعه واختياره • ان العلوم الاجتماعية لا تنتظر نتـــائج العلوم الطبيعية في الانسان ، لانها لا تهدف الى تغيير طبيعته ، بل الى تطويعها• تلك تؤمن بالخـــلق وهذه تؤمن بالتهذيب • لعلهـــا أكثر طموحا أو ادنى ، ومن المؤكد انها اكثر انسانية ، واسمى غرضا •

ان هذه العلوم الاجتماعية ، قد سلطت انوارها على الوجود الانساني ، والمجتمعات البشرية ، وكشفت خلال مئة السنة الاخيرة عن غياهـب ، لـم يكن يجروء العقل عليها الا بالظن والتوهم • من العائلة الصغيرة ، فـــي الـكوخ حتى الامة الضخمة في عين الشمس ، تدرجت العلوم صعـــودا ونزولا ، وتوسعت وتعمقت في نطـــاق شعب معروف ، وقبائل مجهولة • عوالم تعيش ، مندثرة ، تدرس فيها حياة الانسان • ينظر المؤرخ الى ماض شعب ، ليفهم في ضوء معارفه ، حقيقة واقعه وحاضره ، ثم طريق مستقبله • أما العالم الاجتماعي ، وان يكن لا يجحد أثر الماضي في تلاوين الحاضر ، فان مذهبه في البحث ينطلق من كشف الحاضر ، ليفهم فيه أثر الماضـي ، وامكانية المستقبل •

كذلك يتعارض الاقتصاد الفردى ، علما وعملا ، مع الاقتصـــــاد الجماعي • واحد ينطلق من الفرد ليصعد نحو المجتمع ، واخـــر يبدل اتجاهه منطلقا من المجتمع الى الفرد •

ومثلما يغوص العالم الاجتماعي ، والمؤرخ وسط تجربة المجهول ، ويخرج كل منهما حاملا بين يديه ، أثرا او دليلا على أثر ، وغنما أو بعض غنم • كذلك يتنافس الاقتصاد ان في حياة المجتمع وثروته ، كأنهما فارسان يحثان جوادين ملتهبين ، في حلبة لاعدد لاشواطها ولا نهاية •

ان ما كسبه الفارس الواحد من اخطائـه ومن مهارة خصمه اجـزل مما كسبه بالواقع من علمه ومعرفته وصوابه • والتحـــم النظام الفردى بالنظام الجماعي ، التحاما عقائديا خرج بالمعركة من طور العلم ، الى طور المذهب والعقائـد وظل الواحد يأخذ من مكاسب الاخر سواء اقر بذلك أم لم يقـــر • وليس السبق في نهاية الشوط ، ان كان لـــه نهاية ، بـــين

الفردية والجماعية الا لمصلحة الفرد والمجتمع معا .

متى يجوز ان يرجح مذهب المؤرخ على مذهب العالم الاجتماعي ، في دراسة أحوال المجتمع اى متى نبدا من الماضي صعودا الى الحاضر او من الحاضر ، نزولا الى الماضي ؟! .. وما فائـدة كل من الاسلوبين .

ما هي الطبيعة الطبقية في المجتمع العربي . اهي ثقافية ، أم اقتصادية أم اجتماعية . وبم تعالج عندما تعترف ؟! هل صحيح أن ان التخـلف الاقتصادى والاجتماعي ، عرض لمرض التخلف الثقافي ؟! ما هي حوافـز التقدم ، وعوامل التخلف بين مجتمع عربي واخر ؟! هل تنجع حمـلات التوعية ، في الاوساط الامية ؟! وما هو اثر الامية في فشل القيادات المتنورة ، وفي نشر الرأى العام الواعى ؟! وهل الامية في بعض المجتمعات ضرورة سياسية لاستتباب الحـكم واستقراره ...! الخ ....

في أى حال من الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، ينجع الاقتصـاد الفردى ، أو الاقتصاد الجماعي . هل يجب ان يتمذهب العربي بمذهب اقتصادى أم يجب ان يكشف عن اسرار علم الاقتصاد ، ليعمل سـحر العلم في تحصيل الثروة . وهل الثروة قوامه على الانسان أم الانسان قوام على الثروة ؟! وهل المجتمعات سواء في تقبل المبادىء وتطبيقها .. الخ الخ .

ان اى سؤال من هذه الاسئلة ، يجذب نحوه حشودا من الاسـئلة والاجوبة . ولسنا نحسب المجتمع العربي ، الذى نبنيه ونوحده بغنى عن الاسئلة والاجوبة لان الجهل بها ادعى لراحة نفسه واستقراره من العلم بها ! كما لا يهم ابناء العقلاني ، ان يأتي الجواب فورا على راس اللسان بان هذا الاقتصاد اجدى ، وذاك الاسلوب في التوجيه والتخطيط ؟! لان أقل جواب يجذب اليه هذه الاسئلة : لماذا ؟! وكيف ... ومتى ... واين ... ومن أجل ما ... ومن أجل من ؟! ولان الجواب يجب ان يكون قاعدة ، لا اهتزازا ، ويقينا ، لا رجما . وعلما لا غناء ولا حداء .

كذلك يبدو للمتأمل احيانا ، ان العربي في طريقه الى وحدة أمته ، انما ينظر بالواقع الى وحدة ذاته ، ووضوح هويته ، فيتمنى ان ينقذ ذاته

من التناقض ، وهويته من الغموض •

ان الاسئلة لا حصر لها ، مما يعرض للمواطن العادى والمثقف على السواء • وقد يطرحها العادى كأنها أغنية (اللاأدرى) لابي ماضي ، وقد يتعثر ويزداد تمزقا وحيرة وانطواء •

اننا إذ نشير الى هزال ما قام لدينا من البحوث الاجتماعية ، التي تثقف المجتمع العربي ، وتبصره بموقفه الاجتماعي والتاريخي ، وتثبت في عقله وضميره ، وحدة الامة ماضيا ومستقبلا ، نضرب مثلا واحدا على ذلك بان تاريخ العرب ، كوحدة ، لم يكتبه كاتب بعد ، ولم تتوله حكومة بما يستحق من رعاية ، سواء اوقع موقع التفكير منها أم لم يقع • وليس جمع التاريخ ، باسلوب أحمد أمين ، ولا التركيز على بعض جوانبه وعبقرياته باسلوب عباس محمود العقاد ، بالتاريخ العام للحدث العربي على ما في المجهودين المذكورين من عمل فكرى وادبي رائع •

لقد اغنى بعض الكتاب والمؤلفين مكتبة العصر ، ببحوث في التاريخ ونشوء القومية العربية ، وتحليلها ، وادوارها الحديثة ، كالاساتذة فريد أبو حديد وساطع الحصري ، وعزة دروزة ، وكتب في التاريخ العام ، جزئيا أو كليا مؤرخون كالاستاذين فيليب حتي ، وجرج انطونيوس في امريكا الشمالية ، فكانت هذه الاعمال التاريخية ، اعمالا مقدورة احسن الله الى أوليائها ، ولكن حاجة الامة غدت اوسع مطلبا ، وابعد مدى ، لاسيما وان الاجيال العربية المتتابعة ، لا ترى ، أمامها اثرا قوميا تاريخيا جامعا ، مازما ، ينعقد حوله اجماع المثقفين والموجهين ، واهل الرأى ، على انه الاثر الفكرى ، الذى تعاون له ، علماء التاريخ والاجتماع ، ورسموا له العمود الفقرى الذى يحدد اتجاهه ويشد اليه مجموعة ، ويختار لكل من الاحداث في السلك مقاومه ومكانه •حتى ليبدو التاريخ وحدة فقده وارتفاعه ووحده في جزره وانحداره • لانه تاريخ مجموعة بشرية جغرافية ثقافية واحدة •

وفي كل مسكن من مساكن العرب ، يحاول مؤرخون ، وجامعو عاديات ، ان يكتبوا شذرات من التاريخ ، كل بما ترغب قبيلته ، وتهوى

كأن التاريخ مقبرة مباحة عظام أمواتها للدارسين ، يبعثرونها تحت الاقدام أو يعلقونها في الصدور ويزينون بها جدران القاعات ، وانهم ليعلمون ابناء العشيرة ان هذا ما يجب ان يحبوا وذاك ما يجب ان يكرهوا ، كأن التاريخ مدرسة للحاقدين والاحقاد •

لسنا وحدنا بالامة العريقة التي تحمل التاريخ على ظهرها عبئا ثقيلا ، وتبعة تنقض بها المناكب ، وليست المخازي والمجازر ، بوقائع تلازمنا كخصائص او تدمغها كطبائع • ففي تاريخ الاقوام ، شرقية وغربية ، ما هو ادهى منها ، وادمى • فكيف استطاعت تلك الاقوام ان تتغلب على انقلاب الموجات المظلمة من اعماق التاريخ فتنقذ الاجيال من طغيان الاشباح ، وعويل الدمار ، واثقال الاوبئة •

ليست كتابة التاريخ وحدها ، هي التي تقف الاجيال ، وادخلت التاريخ مادة حية في مستقبل الحياة • يبقى القول ان كتابة التاريخ القومي نفسها غدت في كل أمة ، دليلا من أدلة مجدها ، واثرا من آثار ذكائها ، وعاملا من عوامل وحدتها • وقد خلدت الشعوب مؤرخيها ، حتى ليغدو التاريخ القومي ، جزءا من كتبها المقدسة •

ونحن اذا عزمنا على الوحدة ، فلنعزم بلا وناء وفي البدء على كتابة تاريخ الامة دليلا للاجيال المقبلة على النضال المتصلة حلقاته ، جيلا بعد جيل وبناء فوق بناء • وليس فهم التاريخ القومي دليلا الى الوحدة فحسب ، بل تعميقا للوحدة وتوضيحا ، بما لا تعود معه بحاجة الى دليل •

ان المستشرقين ورواد البحوث في تراثنا وتاريخنا ، قد كشفوا لنا الكثير من مزايا وعيوبنا • منهم من نظر بغرض ومنهم لم يكن له سوى غرض العلم ، مقرونا بمتعة الكشف وتحقيق الانتصار على المجهول ، وفي صناعة التاريخ القومي ، يحفل المؤرخون وعلماء الاجتماع ، بالنقد قصدا الى المزيد من البحث واكتساب اليقين وليست قدسية التاريخ في ان لا يمس ، بل في ان يخرج من أهماره ، وينفض من كهوفه ، وينشر للنور • ولعل كل ما عابه علينا المستشرقون أو طعنوا به علينا ، ليس ابلغ اذى من بعض ما

رمانا به مؤرخنا ابن خلدون ، عندما نظر الى ما وراءه في تاريخ العرب ، من نقطة خراب وظلام ، فظهرت في مقدمة الصورة وكأن كل شيء في حياتهم ، توحش وبداوة : أوتاد خيام مقلوعة ، وأثافي موقد ترحل عنهـا أهلهـا ...

وفي رأينا ان جملة من المجهود الفكري يجب ان يوجه نحو تألف المستشرقين لاجراء الحوار بينهم وبين المثقفين العرب ، على ملأ من الجمهور العربي والاجنبي . لأن الحوار عدا عن انه يوسع لاولئك الدارسين سبل الاطلاع ومتابعة الكشف في تراثنا فانه في المدى الخارجي تعريف بأمجاد الحضارة العربية ، عن طريق النخبة من هؤلاء العلماء . وقد قال احـد باحثينا لاجانب ان العرب مكروهون في كثير من الاوساط الاجنبية لسبب رئيسي انهم مجهولون ، على شهرتهم !

وليس الا ببحوث المجتمع العربي وباعـادة كتابة التاريخ في ضوء الطاقات العلمية التي عرفت المجتمعات بالمجتمعات ، والشعوب بالشعوب ، ولقحت التجارب بالتجارب ـ ليس الا بمثل هذه العلوم تكشف واقعنـا لانفسنا قبل العالم باسره ، وللعالم في الوقت نفسه دفاعا عن قومية انسانية غالبا ما تتهم بالعدوان وضراوة الاحقاد ، والتوحش ويرمى تاريخهـا بكل اقذاع وتشنيع ، وحاضر مجتمعها بانه ليس شديد التخلف فحسب ، بـل شديد الاصرار على التخلف والولوع به ، لانه جزء من فطرة القوم وتكوين سعادتهم وراحة نفوسهم .

كيف يمكننا ان نرد على تهمة التخلف ، والاخلاص لروح التخلف ، وهي تهمة أمر وادهى ؟!

ان العلوم الاجتماعية التي نحن بحديثها ، وكان يسميها ابن سينا ، بالعلوم العملية ، كعلم تدبير المنزل اى التربية ، وعلم تدبير المدينة ، أى نظام الحكم السياسي ، وعلم الاخلاق ، والصناعة الشارعة اى التشريع ـ ان هذه العلوم العملية حقا ، ليست بحكم هذه التسمية العربية من ثقافات الترف والكماليات ، بل هي تولد بقدر ما مع كل دولة ناشئة ، وتنمو بالممارسة

والتجربة واقتباس خبرات الشعوب • ولقد تنامت شعبيتها بصفة خاصة في اوروبة ، خلال الحرب الاولى ومن بعد وان تكن منابتها الاولى موازية لتفاقم العصر الصناعى ، ولظهور رأس مال ماركس في أواسط القرن التاسع عشر • ولقد بلغت من اهتمام الرأى العام بها أن كانت مشاداتها الفكرية والسياسية احداثا يتابعها الجمهور ويترقبها •

وان يكن ظهور بعض الكتاب الاجتماعيين وقادة الاصلاح في مصر وبعض البلاد العربية ، مثل محمد عبده وأحمد فارس الشدياق وأديب اسحاق ، والكواكبي ، والشميل وقاسم أمين وأمين الريحاني في الجيل الاول ، وخليل مطران وعباس محمود العقاد والمازني وسواهم في الجيل الثاني ، ان يكون ظهور بعض الادب الاجتماعي على يد فئة من المثقفين ، دليلا على بلوغ تيارات العصر ، بعض الاوطان العربية ، فلا أقل من القول بان موجة الجديد ، ما لبثت ان انحسرت ، فمن هؤلاء الاصلاحيين النقاد من صمت أو تقهقر ، أو تبدل ، ومنهم من لاذ بالشعر والادب الفني ، واخرون أخذتهم الصحافة اليومية السياسية أو العمل السياسي بالذات •

فقد عرف خليل مطران في طلعته الاولى ، على انه شاب مثقف يترجم شكسبير من جهة ، ويكتب في علم المالية والاقتصاد ، وله ترجمات مشتركة في هذه الشؤون مع زميله العقاد ، كما عرف في نشأته بأن كاتب اجتماعي ، يلاحق تيارات العصر ، ويرصد الاشتراكية بصفة خاصة ، وفي رد له على الدكتور غوستاف لوبون الذى ترجم بمصر تحت عنوان (سر تطور الامم) يحمل العقاد العربي ، على الفيلسوف الفرنسي ، لانه عدو المساواة والاشتراكية ، ومع الفرد ضد الجماعة ، ويبدو العقاد ذا نزعة اشتراكية واضحة •ثم يزول مطران الباحث الاقتصادى ، والعقاد الناقد الاشتراكي •

بل ان الخط البياني الممتد من القرن التاسع عشر ، حتى منتصف القرن العشرين ، في مضمار البحث الاجتماعي والنقد الاصلاحي يميل نحو الهبوط ،دون الصعود ، كما هو مفروض • فمن يقرأ احمد فارس الشدياق – مثلا – ١٨٠٥ – ١٨٨٧ في مطلع القرن التاسع عشر – اى قبل ان يتجه

علم الاجتماع والاقتصاد في اوروبة نفسها نحو الجماهير ـ يلمح في تفكير هذا الرائد ، نزعة علمية تحررية اجتماعية ، ترسم زاوية حادة لانطلاق جديد في التأليف العربي • فاذا ما بلغ المتتبع عصر محمد عبده ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ و ١٩٠٢ ـ وجد ان الخط لا يزال في اتجاه الصعود ، بحيث ان مطلع القرن العشرين سيسجل زاوية جديدة للانطلاق • وبرغم تنوع ثقافة العصر ، وغناها بالترجمات عن الاثار العلمية، في هذه المرحلة ، واتصال عدد كبير من المثقفين بالمجتمعات الغربية بمعنى ان الباحث يفرض احتمال التصاعد الدائم لا يلبث ان يلاحظ الفكر الاصلاحي ، الذى هو فى عهده وزمانه ، فكر ثورى حقا في اجواء باردة مائعة ، وتنعدم ملامح الجرأة ، أو الثورية في التفكير العربي ، مقاسة بوثباتها السابقة في عصر مضى • والشواهد القليلة التي تثبت العكس ، لا تقلل بالحق من قيمة هذا الواقع : وهو ان الفكر العربي طفق يتجنب التماس بالمشكلات الاجتماعية ، التى هى مشكلات قومية • ونعني هنا بالمشكلاف القومية ، انها ليست مقصورة على مسكن عربي دون اخر ، بل هى عامة تشمل جميع اجزاء الوطن العربي ،الذى تحكمه تقاليد واحدة ومقاييس اجتماعية واخلاقية واحدة على ما بين جزء وجزء من درجات التفاوت •

ومع الاعتراف بأن السوية الاجتماعية والثقافية في عصر الشدياق ، دونها في عصرنا نحن ، فان طاقة التوتر الفكري التى انطلق منها الشدياق ورواق الاصلاح منذ منتصف القرن التاسع عشر ، هي التى تدنت نسبتها من بعد ، تدنيا واضحا امتد حتى منتصف القرن العشرين • ولو استمر الانطلاق الفكرى العربي من نقطة التوتر التي انطلق منها الشدياق منذ الثلاثين الاولى من القرن التاسع عشر ، لكان يجب أن يكون تفكيرنا على سوية التفكير الاوروبي • فماذا حصل ؟! وما هي علة الانتكاس ، والركود ، والهروب ؟!

قبل الجواب لابد من ان نتعرف بسرعة الى مصير الدعاة الاصلاحيين

والمفكرين غير العاديين • كل منهم ، بدءا من الشدياق الى الكواكبي ، ومحمد عبده وأديب اسحاق وولي الدين يكن وسواهم ، لقي السجن والهوان والنفي والتشرد • ثم خرجت موجة من بعد ، لتخذف بعض الآثار الى النسيان على أنها ضلال وتضليل(*) كأن يدا مأجورة ، مديرة ، قد دخلت في التاريخ ، لتقطع الخط المتصاعد ، وتمحو آثار الخطى ، نحو التقدم •

وعلى هذا فان الجواب على سؤال : أين علة الانتكاس ؟! انها في المجتمع الظالم والحكومات الجاهلة • ان اولئك الذين اذنوا بالفجر ، لم يكونوا أئمة صلاة الصباح • والذين قرعوا الاجراس ، لم يشاهدهم المصلونو في الهيكل ، لانهم كانوا قد شنقوا بحبل القبة • بل قد جار المجتمع على قادة الفكر اكثر مما جار رجال الحكم • اذ كان يصعد الى منبر السلطة بين الحين والحين ، حاكم متنور ، أو دعي التنور على الاقل ، فيدعو الى صلاح واصلاح ، ولكن المجتمع العربي ، او بالاصح المجتمعات العربية كلها ، سادها غباء مظلم وانغلاق عنيف ضد أفكار الاصلاح ولعل كثيرين من المثقفين عرفوا وزراء دول ، يحملون أفكار الاصلاح وبذور التقدم في صدورهم ، واسرارهم ، فلا يجهرون بها ولا يقدرون • فاذا ما خاطبهم المتنور سرعان ما اجابوا بأنهم عاجزون او أن الامر ليس بين ايديهم ••• انه للناس ، للمجتمع ••• لهذا الشيء الضخم ، المنبح ، كليل امرىء القيس ، للجمهور •• هذا الجمهور الممتنع ، المجهول ، الذى يأبى عليك أن تتعلم لتعرف به ، او لتعرفه بنفسه ، فكيف يبيح لك ان تزحزحه عن راحته ، او أن تبدله تبديلا •

ثم قد نشأت من وراء هاتين العلتين اعراض مرضية ثقافية وبرزها هروب المثقفين من قضايا مجتمعهم ، بما ان معالجتها مغامرة وغرم عداما يبذل لها المثقفون من جهد وعناء وعلم • واقترن ذلك بما يوازيه من اهمال

(*) ان جمع (النشر الاجتماعي) ، لنخبة من أدباء القرن التاسع عشر – في النقد والاصلاح والتوجيه – اصبح ضرورة قومية تلفت اليها انتباه المحققين والباحثين ، ولا سيما ، ما ظهر منه في صحف اصدرها هؤلا الرواد ، وكانت منابر للشعب •

الحكومات للبحث الذى يكشف عن موطن التخلف ويرشد الى سبيل التقدم •

ثم قد اتسعت دائرة المجتمع ، فشملت معارف شتى ، تزداد يوما بعد يوم ، حتى اصبح البحث الاجتماعي نظريا وعمليا ، ممتنعا على قدرة الافراد ، وصار لزاما له حكومة متنورة ، تكفيه وتحميه معا ، والا استمر انحدار الخط البياني ، في الفكر العربي ، حتى في النصف الثانى من القرن العشرين ، وهو المرحلة التي نشط فيها الحكم العربي وبدأ ينهض على قاعدة واسعة من مصالح الجماعات ، وتقويم المجتمعات •

كنت منذ شهور في حديث مع البحاثة الموسوعي الاستاذ عثمان الكعاك ، عما قام به العرب في هذا العصر ، وما يجب ان يقوموا به ، سواء من ناحية الكشف عن الجليل المفيد من تراثهم او من ناحية التحصيل العلمي لشؤون حاضرهم ومستقبلهم • فذكر لي الاستاذ الكعاك نموذجا من اهتمام الاجانب بشؤون البلدان التي ينزلون فيها ، ويستعمرونها ، وكيف يتحول هذا الاهتمام المصلحي ، الى علم وبحث علمي • فقال انه قد صدر باللغة الفرنسية ثلاثمائة بحث جيولوجي عن تونس • وخمسة وخمسون كتابا عن (النملة الحمراء) وهي حشرة ذات خصائص علاجية طبية ، كما ان هناك ثمانية آلاف رسالة عن الحشرات المضرة بالزراعة في ليبيا ، باللغة الايطالية ••• الخ الخ •••

فالطريق واحدة اذن ، وليس هناك طريقان لمن يريد ان يستعمر ، ولمن يريد ان يتحرر من الاستعمار ••!! وان يكن ثمة من فروق بيننا وبين مستعمرينا ، فهو أنهم برغم المجهول أمامهم يزرعون ، ونحن في جو الصفاء والمستقبل المعلوم ، لا نكاد نزرع شيئا •

* * *

قد يعترض أحد على أن هذا البحث ، يمكن ان يوضع تحت عنوان (الادب والمجتمع العربي) او عنوان (الادب والعلوم الاجتماعية) أو (الادب والثقافة العامة) ، اكثر مما يمكن أن يوضع عنوان (الادب والوحدة) • فاذا ورد مثل هذا الاعتراض ، فانني اجيب بأنني ما قصدت

سوى ادب الوحدة وثقافتها ، بالعنوان وبما تحته ووراءه .

ولقد اخترت الطريق ، الى الوحدة من مدخلين :

الاول وهو النظر في مقومات الوحدة ، واعتبار النضال القومي المشترك ، عنصرا اساسيا ، دينمائيا من عناصر الوحدة الى جانب العناصر الثابتة ، من أصل ولغة وتاريخ ، وتراث .

والثاني اعتبار النضال تثقفا وتثقيفا ، لا مجرد معركة ذات زوبعة ، تنتحر في دوارها عند اقرب أفق .

وعندما يثبت لدينا ثبوتا ذهنيا وعمليا أن الوحدة ، معركة وثقافة ، كما قلنا ، يكون قد تأكد لنا معنى المناجزة والمطاولة ، في معركة ، ليس لميدانها حدود الا حدود اقصى طاقات الامة مادة وروحا ، حاضرا ومستقبلا . والعلوم التي نقترحها على انفسنا ، هي علوم تأهيل المجتمع العربي ، لمعركة نضالية كبرى ؛ يدخل فيها مادة حية ، لا حطبا ولا هشيما .

ان العنصر النضالي ، كمولد للطاقة الدائمة ، في حركة الوحدة ، هو خير عناصرها ، لا سيما اذا استطاع ان يقبس من العناصر الثابتة ، طاقات مولدة ، وحركة مستمرة . ولقد تداعت شعوب افريقية المستقلة ، الى وحدة النضال ، للتخلص من الاستعمار ، والتخلف ، وليس لديها من مقومات الدعوة سوى الغنم المشترك ، والغرم المشترك .

ولقد ضرب نكروما ، رئيس غانا ، مثلا بسيطا في دعوته الى الوحدة الافريقية ، بأن اوضح للافريقيين أن سدا للمياه على أحد انهر بلاده ، يكفي ، فيما عدا الري ، لتوزيع قوة كهربائية تغطي افريقية كلها ، على أن مشروعا ضخما لكل افريقية ، لا يمكن أن تنهض به الاكل افريقية . فالدعوة الى الوحدة ، دعوة الى مكافحة التخلف والاستعمار في الوقت نفسه .

يبقى أن تستطيع القيادة رفع الشعب الى مستوى الدعوة . وهذه هي رسالة الوحدة .

ويبقى ان ينعقد العزم ، على ان الانسان ليس غاية الوحدة فحسب بل هو السبيل اليها ايضا .

– انتهى –